قصة أيوب عليه السلام في القران الكريم من خلال تفسير الخازن في ميزان العقل والنقل

سميع الحق بن المفتي عبد الديان *

الحمد لله الذي ابتلى نبيه أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالنعم والنقم عليه، ورفع درجاته بعد الابتلاء على ما هو عليه قبله، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد الذي سلاّه تعالى بذكر قصص الأنبياء السابقين وعلى آله وأصحابه الذين رافقوه في الضراء والسراء.

أما بعد: –

فإني أتعرض في هذا البحث لقصة أيوب [1] عليه السلام في القران الكريم من خلال تفسير الخازن – رحمه الله – (دراسة نقدية)، وهل هذه القصة تتعلق بالعقيدة أم لا ؟ وهل الروايات التي ذكرها الخازن – رحمه الله – في أيوب عليه السلام تقدح في نبوته أم لا ؟ وهل سكوته يدل على صحة القصة بدون القدح فيها ؟

ما دل عليه القران الكريم

إن الآيات القرانية المتعلقة بقصة أيوب عليه السلام تدل على أنه عليه السلام ابتلي بلاءاً شديدا في أهله وبدنه وماله، فصبر حتى أثنى الله تعالى عليه بقوله تعالى ((إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب))[2]. وقد كان عليه السلام يقول كلما أصابته مصيبة اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ويحمد الله عز وجل [3]، فمدحه الله تعالى بقوله ((نعم العبد أنه أواب))[4]. وأنه لجأ إلى الله تعالى طالبا كشف الضر عنه، وراجيا رحمته، فاستجاب الله لدعائه وكشف الضر عنه وأبدله خيرا مما فقد منه، وأعاد عليه صحته وأخلفه مالا أكثر من ماله وولدت له زوجه أولادا وبنات بعدد من هلكوا له من قبل [5]، فيقول الله تعالى ((وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للذاكرين))[6].

هل الأنبياء يقعون في الأمراض المنفرة ؟

ولا شك أن الأنبياء يبتلون، وأن أيوب عليه السلام ابتلي، ولكن بلاءه لم يصل إلى هذا الحد حتى أنه أصيب بالجذام، وأن جسمه أصبح قرحة، وأنه ألقي على كناسة ومذبلة بني اسرائيل، يرعى في جسده الدود وتعبث به دواب بني اسرائيل، أو أنه أصيب بمرض الجدري يسقط لحمه من بدنه , ومثل هذه الحالة يؤثر على دعوته إلى الله تعالى ولا تحصل الفائدة من الرسالة، وهو على هذه الحالة المقبحة التي لا يرضاها الله لأنبيائه ورسله[7].

قصة أيوب عليه السلام تتعلق بالعقيدة

1. هذه من الأصول المسلمة أن الأنبياء إنما يبعثون من أوساط قومهم وأكرمهم نسبا وعشيرة، وفي مثل هذه الحالة لا يتصور أنهم تركوه حتى بدأت زوجته تخدم الناس حتى باعت ضفيريتها في سبيل اطعامه. وأين ذهب أتباعه المومنون به في هذه الحالة التي توجب عليهم خدمته، والابتعاد منه ينافي الإيمان [8].

---

* أستاذ مشارك بكلية أصول الدين (الدراسات الإسلامية) بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام اباد باكستان، رئيس قسم التفسير وعلوم القران سابقا

2. ومزيدا عليه أن الأنبياء يجوز عليهم كل مرض بشري إلا ما يوجب النفرة. قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكون بلاء أيوب عليه السلام بصفة يستقذره الناس عليها، لأن في ذلك تنفيرا، وبه قال الطبرسي، وقال القالي في هداية المريد مثله [9].

3. وأنه لا يجوز أن يسلط الله تعالى الشيطان على أنبيائه عليهم السلام، وأنه لا سلطان له إلا الوسوسة فقط، وبه قال الزمخشري [10].

4. وأنه لا يجوز لنبي عليه السلام أن يسأل الله تعالى البلاء ليمتحن ويجرب صبره على ما يصيب بل يسأل العافية، ومثل هذا السؤال مناف لمقام النبوة [11].

5. وأن مثل هذا المرض لا يتفق مع منصب النبوة، لأن النبي عليه السلام لا يستطيع أن يؤدي وظيفته هي الدعوة إلى الله، لو وقع في مثل هذا المرض المنفر عدة سنوات، لأنه يؤثر في الدعوة وفي المدعوين حتى في المجتمع. وقد قدر علماء التوحيد أن الأنبياء مترهون عن الأمراض المنفرة، فكيف يتفق وقوعه عليه السلام في مثل هذا المرض المنفر مع منصب النبوة بل هو كلام باطل بل يجب اعتقاد عصمة الأنبياء عن الأمراض المنفرة الشنيعة كالتي قيلت عن أيوب عليه السلام، ولكنه مرض مرضا شديدا غير منفر [12].

6. وكذلك وقوع زوجته في حالة حيث تبيع أشعارها لإطعام زوجته مخالف لمقام النبوة، وإرسال الزوجة لخدمة الناس لكي تأتي بالطعام لا يليق بالنبي عليه السلام، بل إرسالها بدون أي محرم معها إلى خدمة الناس أيضا مناف لمنصبه عليه السلام.

7. ثم وضع أيوب عليه السلام التراب على رأسه بعد سماع خبر موت أبنائه ينافي ما قاله تعالى عن أيوب ((إنا وجدناه صابرا...)) كما جاء في تفسير الخازن [13]، لأن الصبر المقبول عند الصدمة الأولى.

8. وأن اتهام المؤمنين به بأنه مذنب ولومهم عليه بهذا، ثم قولهم للنبي تب إلى الله من الذنب مناف لمنصب النبوة [14].

9. وكذلك تمني أيوب الموت وقوله ((يا رب لأي شيئ خلقتني يعني إذا كرهتني لم تخلقني إلخ، ينافي منصب نبوته، ويعارض النصوص القرانية التي على صبره الكامل [15].

10. ثم إلقاء أيوب عليه السلام في كناسة لبني اسرائيل ومكثه فيها سبع سنين وأشهر يختلف فيه الدود ولا يقربه أحد إلخ ينافي عصمة النبي عليه السلام [16].

11. ووقوع أيوب عليه السلام في السجدة لعدم وجود الطعام والشراب عنده، ثم التوجه إلى الله تعالى بقوله ((أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)) مناف أيضا لمقام النبوة، لأن النبي لا يهتم بالشراب والطعام بل يهتم لهدفه الأساسي وهو الدعوة إلى الله تعالى [17].

والحد المأمون في قصة أيوب عليه السلام هو أن أيوب عليه السلام كان – كما جاء في القران – عبدا صالحا أواباً، وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا، ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له [18].

والحد المأمون في قصة أيوب عليه السلام هو أن أيوب عليه السلام كان – كما جاء في القران – عبدا صالحا أوابا، وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا، ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له [18].

نظرا إلى هذه الأمور وإلى غيرها في القصة أقول إن قصة أيوب عليه السلام تتعلق بالعقيدة، ولا بد من القول بالذي لا ينافي مقام النبوة ومنصبها.

وأما ما ذكر من الروايات التي تنافي النصوص القطعية التي تدل على ما يجب للأنبياء إثباته وعلى ما يجب نفيه عنهم، لا نقبلها في مقابل النصوص القطعية بمجرد النظر إلى السند.

سبب سكوت الإمام الخازن رحمه الله

إن الإمام الخازن – رحمه الله تعالى – ذكر قصة أيوب عليه السلام، ولم يعقب عليها ولم يبين بطلانها خلاف عادته، هل نجد لهذا مبررا ؟ وهل نقول إن في كلامه نظرا ؟

وعلى كل حال أنا أميل إلى ما قلت وهو أن الروايات التي تدل صراحة على الأشياء التي تنافي منصب النبوة وتقدح فيه، وتنافي النصوص القطعية التي تدل على عصمة الأنبياء مما يليق بهم مع كون باب التأويل مفتوحا لا تقبل. ولكني أقول لعل الإمام الخازن رحمه الله سكت للأسباب الآتية:

1. أنه لعله يرى أن ما في هذه القصة لا يتعارض مع العصمة ولا يقدح في مقام النبوة، ولا يمس جانب العقيدة، بل ربما رأى أن في هذا الصبر رفعة لمقامه، ولهذا سكت [19].
2. أن ما حل بأيوب عليه السلام ليس من الأمراض المنفرة، فه مثل العمى الذي حل بيعقوب عليه السلام[20].
3. يمكن أن يقال أنه يرى أن مثل هذه الأمراض منفرة بعد الرسالة وليست بعد النبوة، وإنه ابتلي بهذا المرض وغيره قبل الرسالة بعد النبوة، لكنه جعل رسولا بعد هذا الابتلاء والنجاح فيه [21].
4. يمكن أن نقول إنه يرى أن هذا الابتلاء والمرض عرض له قبل النبوة، ولما صبر على ما حل به وفاز في الابتلاء رزقه الله تعالى منصب النبوة، ولهذا لا يكون مانعا عن مقصد التبليغ والدعوة إلى الله [22].

نتيجة البحث:

وصلت إلى النتائج الآتية وهي:

1. أن أيوب عليه السلام نبي ورسول من أنبياء الله ورسله، وأن الله تعالى ابتلاه بالنعم والنقم عليه، فوجده صابرا، فرفع مكانته بالإنعام عليه أكثر مما سبق من النعم عليه.

2. وأن الأنبياء لا يقعون في الأمراض المنفرة عنهم.

3. أن الأمراض المنفرة منافية لمنصب النبوة وعصمة الأنبياء، لأنها تمنع من قبول دعوتهم، وتقف أمام قبول الهداية والرشد منهم.

4. وأن سكوت بعض العلماء على القصة بعد ذكرها يمكن لنا أن نقول إنهم يرون أن القصة لا تتعلق بالعقيدة.

5. أن قياس مرض أيوب عليه السلام على العمى الذي حل بيعقوب عليه السلام فيه نوع من النظر، لأن السبب لمجيء الغشاوة والعمى في حبيبتي يعقوب عليه السلام واضح، وأما وقوع أيوب عليه السلام في هذا المرض لا يعرف له سبب مثله.

ولا أقول: إن هذا القياس قياس مع الفارق بينهما، لأني لضعف علمي يمكن لم أصل إلى العلة المشتركة بينهما التي وصل شيخنا – بارك الله في علمه – إليها.

6. إن الأعمى يكون محترما عند الجميع، ولا يؤثر هذا في الدعوة إلى الله تعالى، ولا يعد منفرا أيضا منها.

7. أن بعض العلماء يرون أن ابتلاءه قبل الرسالة وبعد النبوة، ووقوعه في مثل هذه الابتلاءات ينافي الرسالة ولا ينافي النبوة.

8. وأن البعض الآخر يرى أنه ابتلي قبل النبوة وجعله الله تعالى إماما ونبيا بعد الابتلاء وبعد الفوز فيه، وصدور مثلها قبلها لا ينافي منصبها والعصمة.

9. أن ما ذكره الإمام الخازن – رحمه الله – في القصة فيها أمور كثيرة تنافي منصب النبوة وعصمة الأنبياء والصبر الذي صرح به القران الكريم كما ذكرتها سابقا.

10. أن الوقوف عند الآيات القرانية أفضل من الاعتماد على الروايات التي لا تعرف درجتها أو هي مناقضة للنقل والعقل.

11. أن مجرد قوة السند لا يكفي لقبول الرواية المناقضة لأصل من أصول الدين.

12. أن القران الكريم سكت عن التفاصيل التي تعرض لها الإمام الخازن – رحمه الله – وغيره من العلماء الكرام، ولهذا السكوت والوقوف عند القران الكريم أفضل إلا إذا وجدت الروايات الصحيحة سندا ومتنا لا تعارض النقل والعقل والأصل من أصول الدين.

13. أن سكوت الخازن –رحمه الله – بعد ذكر القصة عليها، يحتمل صحتها ويحتمل غيرها أيضا لأن مجرد السكوت لا يحتج به على صحتها ما لم يصرح بها، إذا جاء الاحتمال بطل الاستدلال.

(1) هو أيوب بن حوص بن روعويل، وكان في زمن يعقوب بن اسحاق، وتزوج بنته إليا بنت يعقوب، وكانت أمه بنت لوط عليه السلام، وكان أبوه حوص ممن آمن بابراهيم، قال ابن عباس: سمي أيوب لأنه آب إلى الله تعالى في كل حال. المشهور أن أيوب عليه السلام هو من ذرية ابراهيم كما قال تعالى [ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون] الأنعام: 84، لأن الصحيح أن الضمير عائد على ابراهيم دون نوح عليهما السلام.

- النكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسين علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري 364 هـ - 450 هـ، 101/5، دار الكتب العلمية بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1412 هـ / 1992م.
- قصص الأنبياء واخبار الماضيين خلاصة تاريخ ابن كثير للقاضي الشيخ محمد بن أحمد كنعان ص/333، مؤسسة المعارف بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1416 هـ / 1996م.
- الجامع الصحيح لأحكام القران لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي 323، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1405هـ / 1985م.

(2) سورة ص: 44

(3) روح المعاني للسيد محمود الآلوسي 277/23، المكتبة الحقانية محله جنكي بشاور باكستان ب – ت.

- تفسير القران العظيم لأبي الفداء اسماعيل بن كثير المتوفى 774هـ، 48/4، 49، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية 1418هـ / 1997م.
- قصص الأنبياء وأخبار الماضين، خلاصة تاريخ ابن كثير ص/ 334

(4) سورة ص: 44

(5) تاريخ الأنبياء للدكتور الطيب النجار ص/ 263-264، دار الاعتصام، الطبعة الثالثة 1401هـ / 1981م.

- النبوة والأنبياء للشيخ محمد علي الصابوني ص/ 265، الطبعة الثانية 1400هـ / 1980م.
- الجامع لأحكام القران للإمام القرطبي 216/15، 215
- التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر بن عاشور مجلد 7 جزء 126/17، دار سحنون 10 مكرر نهج هولانده 1000 تونس الجمهورية التونسية.
- قصص الأنبياء واخبار الماضين، خلاصة تاريخ ابن كثير ص / 334.

(6) سورة الأنبياء: 83-84

(7) النبوة والأنبياء ص/266

- الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد محمد أبو شهبة ص/391، 392، مجمع البحوث

الإسلامية الأزهر 1402هـ / 1982م.

- تاريخ الأنبياء ص/ 265.
- حاشية قصص الأنبياء واخبار الماضين، خلاصة تاريخ ابن كثير ص / 333.

(8) الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص / 392.

(9) أحكام القران للمفتي محمد شفيع العثماني 48/4، اداره القران والعلوم الإسلامية كراتشي باكستان، الطبعة الأولى 1407هـ / 1987م.

(10) حاشية قصص الأنبياء، خلاصة تاريخ ابن كثير ص / 333.

- أحكام القران للمفتي محمد شفيع العثماني 46/4.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ص/ 927، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1423هـ / 2002م.

(11) أحكام القران للمفتي محمد شفيع العثماني 46/4.

(12) النبوة والأنبياء ص/ 266-267.

- القران الكريم وبهامشه قرة العينين على تفسير الجلالين للقاضي الشيخ محمد بن أحمد كنعان ص / 429، 602 – 603، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1408هـ / 1988م.
- حاشية قصص الأنبياء واخبار الماضين خلاصة تاريخ ابن كثير ص / 333.

(13) لباب التأويل في معاني التنزيل (المعروف بتفسير الخازن) للشيخ علاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن المتوفى 725هـ، 310/4، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية 1375هـ / 1955م.

(14) لباب التأويل في معاني التنزيل 311/4.

(15) لباب التأويل في معاني التنزيل 312/4.

(16) ا لباب التأويل في معاني التنزيل 313/4.

- جامع البيان عن تأويل آي القران للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري 203/12، دار الأعلام اردن عمان، دار ابن حزم بيروت لبنان.

(17) لباب التأويل في معاني التنزيل 314/4.

(18) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى 4782/8، دار السلام 120 شارع الأزهر، الطبعة الأولى 1405هـ / 1985م، الطبعة الثانية 1409هـ / 1089م.

- في ظلال القران لسيد قطب الشهيد 321/5، دار الشروق بيروت لبنان، الطبعة العاشرة 1402هـ / 1982م.

(19) تفسير الخازن والاسرائيليات للأستاذ الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي ص/ 58-59، حولية الجامعة الإسلامية العالمية اسلام اباد باكستان، العدد الثاني 1405هـ / 1994م.

(20) المرجع السابق ص/ 59.

(21) قصص الأنبياء لمولانا اختر حجازي ص / 174، ن الفيصل اشران وتاجران كتب اردو بازار لاهور نمبر 2، الطبعة الأولى 1985م.

(22) قصص القران (اردو) لمولانا حفظ الرحمن سيوهاروي، ج 2-3 ص/ 186، دار الاشاعت كراچي طبع جديد.